رجل قتلته الكتب

عقل غيرك تضيفه إلى عقلك

عـاش الجاحظ في الكتب ومـات في الكتب، حيث مات وعلى صدره كتاب، وكانت الكتب قد تساقطت عليه وغمرت أنفاسه وهو مصاب بداء الفالج وهو الداء الذي أعاق جسـده ولكن لم يعق حبه للكتب، لم يتـزوج الجاحظ ولم يخلـف ذرية وليس له عصبـة عائلية وقد خـرج من عالم الظلمات والتهميش، ولـولا علاقته بالكتب لما صار ولا مر على بال أحد. ولكنه ولد وفي فمه وحشـة للكتاب، وقد شـق طريـق حياته كله في بحث أبدي عـن الكتاب، وفي مطلع حياته كان يسـتأجر دكاكين الوراقين في الليل حيث هـي مغلقة أصلاً ولا نفع فيهـا في وقـت الليل، إلا أن الجاحظ حول غـير النافع إلى نافع، وإذا استغنى التاجر عن دكانه ليلاً فإن الفتى جاحظ العينين سيكتشف طريقة يسـتثمر فيها هـذا الوقت الضائع، وهو إذا اسـتأجر دكان الـوراق فإنما ليمضي ليلـة كاملة على سراج بسـيط يقرأ في الكتب حتى إذا جاء الصباح سلم الدكان لصاحبه ومضى هو لينام بعد أن ترحل ليله كله في صحبة العقول البشرية المسجلة على الورق، ومن هنـا جاء تعريفه البارع لهذا النوع مـن الحياة بقوله: (والأدب هو عقل غيرك تضيفه إلى عقلك).

القـراءة عقـل مخبوء في كتـاب ويتحرك هـذا العقل مـع تقليب

الصفحات وأنت ترى البشر أمامك على الورق وهم البشر الذين رآهم الجاحظ وأخذ عنهم وتربى عقله عليهم, ولقد كسب الجاحظ عصارة الفكر البشري في زمنه وجاءت ذاكرته متنوعة ومعمورة بلغات الآخرين وكلماتهم ومعانيهم، وعبر هذا الخليط العقلي واللغوي والمعلوماتي جاء الجاحظ ليفيض بهذه البحار ويتدفق بمياهها, وإنك لترى الخليط الثقافي العجيب لدى أبي عثمان بدءاً من موسوعته عن الحيوان إلى معارفه بعلوم العرب وأعرافهم وحياة الأعراب ولهجاتهم وأخبارهم إلى تبحره في (علم الكلام) وريادته لمدرسة كلامية تسمت باسمه، ويحيط بهذا كله ظرف وذهن ثاقب توسل بالاستطراد كحيلة ثقافية لتغليف رسائله الخاصة من تحت المتن الرسمي، فكتب نوادره ورسائله ومبارزاته الكلامية والأدبية وكتب عن البخلاء وقصص الأعراب وحكايات أهل المدن وعجائب البشر، في خليط ثقافي يضم خطابات مزدوجة ما بين المداهن للمؤسسة الرسمية والاجتماعية حيث المتن بوقاره وتحصنه، وما بين الخطاب النقدي الذي يتستر بستر السخرية والنادرة ويأتي وكأنما هو طرفة ونكتة، وهو في صلبه نقد لاذع وتشريح للمؤسسة وفضح لسلطويتها ولا تنقصه الحيلة في ذلك حيث يراوح خطابه النقدي بين النوادر وبين المحاورات المفترضة التي يجريها على ألسنة المهمشين من الجواري والغلمان والسود وكافة أنواع الفئات البشرية من أعراق وثقافات وطبقات، وهي

كلهـا حيـل ثقافية توسـل بها الجاحـظ لعرض سـوءات المجتمع وأنساقه الثقافية بكل تقاطعاتها.

ولقـد كان من أمثال العرب قولهم: كل لسـان إنسـان، وهو مثل تـراه حيـاً في صنيع الجاحظ، حيث اسـتخدم ألسـنة المجتمع كلها للتعبـير عن مكنونات نفسـه. وإن كان الشـعراء يحتالون بالمجاز الشـعري تحت مفهـوم أن أجمل الشـعر أكذبه وأنهـم يقولون ما لا يفعلـون، وأن قولهم هو قول لا يحاسـبون عليـه؛ فإن الجاحظ توسل بالسـخرية وأسلوب الاسـتطراد لكي يرفع عن كاهله اللوم فيسـوق الطرفة مساق الإطراب والتسـلية مثلما يسوق المحاورات بين الفئات مسـاق التنـدر والتظرف فيمر خطابـه غير مراقب ولا محاسـب مثله مثل المجاز الشـعري، ولكنه في الحقيقة كان يرسل رسـائله الخاصة ويقوم بإيصالها ببيان عميق وتوثيق ثقافي خالد، ولقد صـار القوي والفاعـل من حيث هو ضعيف بـلا عصبة ومن حيث هـو مفرد ووحيد ولكن ذكاءه وسـلاحه الثقـافي فرض لغته ومقولته على الذاكرة الثقافية في تاريخ الفكر العربي كله.

بدأ بالسـخرية من نفسـه فروى أن قوماً ذكروا اسـمه للخليفة المتـوكل ليأخـذه مربياً لبعض ولده وذهب الجاحـظ لإجراء مقابلة لهـذا الغـرض وهنا يـروي قائلاً إن المتـوكل حينما رآني استبشـع منظـري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفنـي. ومثلها ما رواه عن قصة له مع فتاة حيث يقول: أتتني فتاة وأنا على باب داري فقالت:

لي بـك حاجـة وأريد أن تمـشي معي، فقمت معهـا إلى أن أتت بي إلى صائـغ يهودي وقالت له: مثل هذا وانصرفت. فسـألت الصائغ عن قولهـا فقـال: إنها أتـت إلي بفـص وأمرتني أن أنقـش عليه صورة شيطان، فقلت لها: ياسـتي ما رأيت الشيطان، فأتت بك وقالت ما سمعت.

روى الجاحـظ هـذه القصص عن نفسـه مسـتثمراً بذلك قبحه ليكون سـلاحاً ثقافياً يقاوم به السـلطة الاجتماعية التي تمرست في التهميـش وكان هـو قد جاء مـن قاع التهميش وقـرر أن يعري لغة المجتمع وحيله النسـقية في الإفراد والإلغاء، ولذا وضع الخليفة من جهة والفتاة من جهة أخرى في سـلم ثقافي يكشف عن مجتمع وثقافة تحمل عيوبها الخاصة مثلما تحمل أمجادها، وهو قد وضع الوجهـين معاً حيث كشـف عن لغة العرب بأبهـى صورها البيانية ونافـح عـن مقام الثقافـة العربيـة في مقابل الشـعوبية المحتدمة حينها، وفي الوقت ذاته عـرى عيوب المجتمع العباسي، في تقابل بين كافـة الوجوه الثقافية، وتبعاً لذلك التزاوج بين مسـتويات الثقافة فإنه سـجل مسـتويات الأداء اللغـوي بين البسـطاء والعامة وبين الفصحاء وعلية البلغاء، وكلمة (سـتي) في هذه القصة مفردة تدل على لهجة شـعبية لم يغفلها الجاحظ ورصدها مثل رصده لخطب أهـل البيـان، ولعل عنوان كتابـه (البيان والتبيين) يـدل على هذين البعدين في المستوى اللغوي حيث مصطلح البيان للعلية بينما يشير

التبيين إلى لغة التداول اليومي في تقابل مستمر عند الجاحظ بين المتن حيث المؤسسة الثقافية الرسمية، وبين الاستطراد حيث الثقافة الشعبية، وأول مواد الثقافة الشعبية هي القص الشفاهي ومادته التي يبدؤها بنفسه وبتشريح جسده وشكله وتاريخه ويسحبها لتشمل أعلى رؤوس المؤسسة السياسية والدينية والثقافية.

لقد كان الجاحظ مثالاً للمثقف الحر والناقد المعارض ثقافياً، وعاش بالكتب ومع الكتب، ومات بالكتب.

قتلته الكتب وهو الرجل الذي افتتح كتابه البيان والتبيين مستعيذا بالله من (فتنة الكلام) وكان حريصاً على أن يعيش واقعياً ولا يتعالى على طبقته التي جاء منها ولم ينسَ أبداً أنه من الهامش وأن قبح وجهه ظل معه مذكراً له بماضيه الشعبي وحاملاً لهذه العلامة في علاقته مع المجتمع حتى صار القبح سمة له وتسمى به، حيث كلمة الجاحظ جاءت بسبب جحوظ في عينيه جعلت الناس تسميه بهذا الاسم ولم تكن هذه التسمية منه ولا من أبيه ولكن الناس وسموه بعيبه الخلقي حتى صارت اسماً له وتقبل هو هذه السخرية واتخذها اسماً له ليدين مجتمعه مثلما تقبل نكتة الفتاة عليه وتصرف المتوكل معه ورواهما، لقد حمل هذا الاسم وجعله علامة عليه وعلامة على عنف المجتمع وسخريته، قبل بالعلامة الفارقة اسماً له وعنواناً عليه، وتوسل بها لترقيق مشاعره عن حاله وفي الوقت ذاته وظفها كمنهج نقدي يكشف سيرة المجتمع

مـع المختلف والمخالف، وعـبر هذا عاش الجاحظ فـرداً وظل قيمة فردية لا يسـتند إلى عصبة ولا يتبع غيره حتى من الناحية الفكرية حيث أسـس لمنهجه الخاص وصنع منهجية فكرية دينية تسـمت بالجاحظيـة. هو المفكر الذي أضاف عقـول الآخرين إلى عقله ومن هذا تعـددت عقوله وتعددت كتبه وتعددت رؤاه وتنوعت أسـاليبه، وسيبقى الجاحظ في ثقافتنا مثالاً حياً على توظيف الكتاب بوصفه عقلاً تفاعلياً، وفي توظيف الشـعبي بوصفه روحاً ثقافية في تزاوج فعال وإيجابي حتى وإن دفع المرء ثمناً غالياً لذلك.

في خدمة الكتاب

إنهـا لمتعـة فاتنة أن تجلس بـين الكتب تراهـا في صور وأحجام وأشكال وألوان وتطل عليك كعوبها بين الرفوف وتحس أنها تتكلم معـك وتنظر إليك وتسـتجيب لهواجسـك، وفي حياتي تعلمت هذه المتعة ومارستها وما مر يوم إلا وجلست في مكتبتي أتأمل وأسرح النظـر بـين الكتب وقـد تطول الجلسـة وأنا أترك نفسي منسـابة تقودهـا النظرات يعمها الصمت العميـق والممتد عبر القرون بين الشعراء والكتاب وبين اللغات، ويمر الوقت في هذه الرحلة الخيالية وكأني وسط نسائم التاريخ وهمسات الزمن، وأنا واحد من هؤلاء القابعين وسط الصفحات آخذ وأعطي معهم.

تلك جلسـة يومية تعودت نفسي عليها، وعرفتني بها كل مكتبة